رحلة الاختطاف لعالم السواد

(قصة قصيرة)

بقلم: عبدالله العثمان

وأخيرا عدنا لكويتنا الحبيبة من رحلة صيفية ممتعة.. كويتنا التي نشتاق لها حتى لو كنا في أجمل البلدان.. استلمنا حقائبنا وتعدينا الجموع التي تنتظر أحبابها.. ووصلنا للباب الخارجي لنعود لبيوتنا.. توقفت أمامنا سيارة فورد ماركيز ذهبية اللون.. عرض علينا سائقها التوصيل المجاني فوافقنا على الفور.. دخلت أنا وأخي السيارة.. ودخلت معنا زوجة شخص يريد التوصيلة المجانية.. وذهب زوجها لاحضار حقائبهم.. وإذا بسائق السيارة يقول لزوجها ودع زوجتك.. وينطلق بنا بسيارته.. فلا أدري هل هذا اختطف أم ماذا.. أخذت المرأة تبكي وتنتحب وتترجى السائق أن يعيدها لأهلها.. ولكن السائق يبتسم ابتسامة خبيثة ويحمل بداخل قلبه نوايا ليست بطيبة..

كعادتي أحب الهدوء في المواقف الصعبة والأزمات ولا أحب التصرف بانفعال وغضب حيث أندم بعدها.. فسكت وراقبت.. بدأ السائق يتمداى مع زوجة المخطوف.. وهي تبكي من كلامه وسوء أدبه.. تتوسله بلا فائدة.. حاول أخي أن يضرب السائق ولكني مسكت يده وأومأت له بعيني لكي يهدأ ولا ينفعل.. جلسنا نراقب صامتين أنا وأخي.. ثم بدأ السائق يسرد تعليماته علينا لندخل في عالمه ونطيعه في كل صغيرة وكبيرة.. كان يتكلم وهو واثق من تطبيقنا لكلامه وإلا العقاب الأليم.. بدأ يتمادى مع المرأة وهي تبكي وهو ينظر لها بنظرة الأمر المتسلطة.. يقود السيارة وأنا مدهوش مما يحصل ولساني مربوط لا أستطيع الكلام..

وصلنا لمكان غريب بيت صغير في حجمه ولكن به سراديب كبيرة الحجم محفورة تحت الأرض وكأنها مدينة أخرى أكبر، أمرنا أن نجلس على الكرسي والمرأة عن يساري، فأخذت صورة لابنتي كانت معي وأخذت اناظرها وابكي، فسألني لماذا تنظر لهذه الصورة، فقلت له لكي لا أنسى أن لدي ابنة وواجبي أن أحافظ على بنات الناس كما أحافظ عليها، ورجوته أن يفعل كل شي سوى أن يأخذ هذه الصورة.. مسكت الصورة وأخذت أبكي بشدة ولا أشعر بما حولي.. أخذ يأمرها بأن تلتصق بي ولكني لم أشعر بها وأخذت

اركز في الصورة متناسيا العالم من حولي.. انشغل وابتعد عنا فتنفست الصعداء وهدأت نفسي..

أتانا الغاصب بعد ساعة وأخذنا لغرفة تبديل الملابس وأخذ مساعديه بصباغة أجسادنا باللون الأسود، وأخرجنا إلى صالة بها أناس كثر مصبوغة أجسادهم بذات اللون ولكن بتصاميم مختلفة ولكن لا تخرج عن اللون الأسود.. والمفاجأة الكبرى كانت أني وجدت أناسا أعرفهم.. فهذا أستاذي في الجامعة.. وهذا فلان بن فلان.. وهذا جارنا.. كيف أتوا إلى هنا.. هل هناك عالم سفلي يأتي إليه البشر؟ هل هو عالم يأتيه الإنسان في المنام؟ هل أنا في حلم أم علم؟ هل أنا في عالم الأرواح أم عالم الإنسان..

لازلت صامتا لكي لا ألفت نظر الغاصب إلي فهو الآن مشغول عني.. ولابد أن أفكر في هذا المكان وطريقة الهروب.. حاولت في البداية أن أقرص جسدي لكي أستيقظ.. شربت الماء وأيقنت أني في عالم حقيقي.. وهنا بدأت رحلة الاكتشاف لهذا العالم الغريب.. عالم يظهر الإنسان فيه على حقيقته الداخلية ويفشي أسراره على العلن.. فالصادق يكون فيه صادق.. ومن يخفي سيئة تظهر هنا.. فالكل يعرف عن الكل..

أخذت المرأة المخطوفة تبتسم للرجال في هذا العالم.. وجدت أستاذي في الجامعة ينصحها بأن تغير ذاتها من الداخل فما في الداخل يخرج في هذا العالم أمام العلن.. ولكنها ردت عليه بأنها سعيدة في هذا العالم فلم تعد تحتمل مجاملة زوجها دائم الانتقاد والزجر لها والذي لا يشجعها على طموحها.. فقال لها بأن الحياة الزوجية ليست كلها يسر ودلال بل هي جهد واجتهاد.. بناء بين طرفين.. وعشرة وزرع للمحبة كل يوم.. ايداع لرصيد الحب بالأفعال الطيبة والكلمات الحسنة.. وكل مشكلة هي فرصة للفهم والقرب.. أعجبتني نصائح أستاذي فلطالما في عالمي كنت أرغب في معرفة دواخله وما في فكره.. وقد صدقت فراستي فيه فصفاء كلماته كصفاء قلبه.. وفي هذا العالم تظهر الحقيقة.. وللأسف تابعت المرأة غيها وتنفست رياح الحرية متناسية كل شي..

التحفت جانب الطريق وأخذت بالبكاء فلا أريد عالما لا أملك فيه نفسي أو أزل فيه.. أريد عالم الصفاء.. عالم المسجد.. عالم فتح المصحف والغوص في آياته.. ولا أدري عن هذا المكان هل هو عالم فاضل أم فقط به المنكرات.. هل به مسجدا مبني أم غربة في عالم غريب.. الغريب بأن هذا العالم ليس فيه أطفالا فلا أجد سوى من جاوز الثلاثين.. هل هؤلاء مخطوفين مثلي أم أتوا باختيارهم.. ولماذا هم هنا هل لأن هذا العالم ليس به حساب أو عقاب؟ أم أنهم لم يجدوا ذاتهم الحقيقية في عالمهم.. فكم من شخص يعيش حياته تمثيلا وتظاهرا بغير ذاته الحقيقية.. يكذب على نفسه قبل أن يكذب على الآخرين.. يتصنع الراحة وهو غير مرتاح.. لا يقول الحقيقة ويكتمها في نفسه.. فهل وجودهم في هذا العالم من اختيارهم؟ وإن كان باختيارهم لم اختطفوني؟ هل لأني غير صادق مع نفسي في حياتي أم أني تواجدت في المكان الخطأ؟..

أتاني الخاطف وسألني ما بك تبكي وتعجبت من سؤاله فهو المتغطرس صاحب الأوامر يسألني لأول مرة؟ فقلت له لماذا أتيت بي إلى هنا؟ فرد علي لا تستعجل فلن أضرك أو أؤذيك ولن تطول مدة وجودك، ولا تلمني فلست صاحب القرار بل أنا مأمور بما فعلته.. ولن تغيب عن حياتك الحقيقية وعالمك سوى دقائق قليلة وسأوصلك بنفسي لبيتك، أما هنا فستكون في هذا العالم لصباح الغد.. فالتوقيت في هذا العالم ساعاته تساوي دقائق في عالمك.. قاطعت حديثي بسؤاله عن سبب رؤيتي لأناسا أعرفهم في عالمي فكيف ذلك؟ نهرني وقال: ليس عليك أن تسأل كثيرا بل اكتشف وتعلم عن ذاتك في هذا العالم، فهذا هو عالم الحقيقة حيث كل شي صادق وواضح وليس هناك ظاهر وباطن بل كل شي مكشوف أمام العيان.. فتعلم الحقيقة.. حقيقة نفسك ومن حولك ولا تكثر من الأسئلة.. وإن لم تطع الأوامر أريتك الوجه الآخر مني..

رحل الحزن عني وحيرتي وبكائي.. صليت وأنا جالس لكي لا يشعر بي أحد فلست أود أن أحرم من عبادة ربي بسبب طواغيت متجبرين.. وبعد أن انتهيت وجدت رجلا صاحب لحية بيضاء أتى وجلس بجانبي.. ورحب بي وقال لي مرحبا بك في عالم الحقيقة.. فقلت له أهلا بك، ألم يرسموا جسدك بالسواد كما فعلوا بي؟ أم أنك أمير هذا المكان؟ فضحك وقال لي أنا حقيقتك وسأحدثك عن نفسك أكثر بلا مجاملة.. وهذه فرصتك لتعرف عن نفسك قبل أن تعود لعالمك الحقيقي.. وإن تعلمت عن نفسك ستكون في حياتك أسعد وتكون مرتاحا مع الآخرين.. وفي الحقيقة أغلب البشر لا يدخلون لعالم ذواتهم ويفكرون في أنفسهم.. وإن حاولوا ذلك يجدون ظلاماً لا نوراً ولست أقصد بالظلام أنهم سيئين بل أنهم لم يدخلوا لأعماقهم وينيرون الغرفة المظلمة ويكتشفوا ما فيها، فاكتفوا بالخوف وخرجوا منها، ولم يقتربوا من فهم ذواتهم.. والناجحين هم من يصبرون على أنفسهم ولا يخافون الظلمة بل يفهمون أنفسهم ويدخلون لأعماقها حتى يعرفوا ما بها.. وأنت الآن من الناس المحظوظين أن أتيت لعالم الحقيقة لتعرف كل شي فلا تفرط في هذه هالفرصة وتعلم منها حتى تعود لعالمك ببصيرة وهدى..

شكرا لكلامك الجميل وأنا بالفعل تعلمت الكثير عن نفسي ولكن كلامك صحيح فنحتاج أن نكتشف الحقيقة ولم ونواجهها، وأنت الآن أرحت قلبي من هذا المكان الذي خفت منه.. حدثني عن نفسي يا صاحب الوجه الطيب وحدثني عن الحقيقة.. رد علي بابتسامة حلوة وقال لي سأحدثك عمن حولك أولا ثم أغوص في ذاتك.. الناس من حولك ألوان واصابع اليد ليست واحدة.. فمن الناس من همه يومه ومن الناس من يعيش في عالم أحلامه ومنهم من يخطط لمستقبله ويعيش يومه ولحظته وهو أفضلهم.. من الناس من يبخل بماله واحساسه ومنهم من يقدم غيره عليه وخيرهما الوسط.. الأخلاق عزيزي وسط بين سلوكين متطرفين.. فالتهور والجبن ليست بفضائل والوسط بينهما الشجاعة.. الناس طاقات ومشارب فمنهم اجتماعي الطبع

ومنهم من يحب الوحدة ومنهم من يحب العمل ومنهم من يؤثر الراحة والكسل.. وأفضلهم من يركز على نقطة قوته ويحاول أن يتعلم الصفات المناقضة لطبعه ليستخدمها متى ما احتاجها.. وخير الناس من آثر العمل ثم الراحة.. فمن يرتاح أولا يتعب آخرا ومن يتعب في البداية يريح نفسه في النهاية ويجني ثمرات جهده وبذره.. ولتنجح مع الآخرين لابد من أن تحب ذاتك أولا وتقدرها حق قدرها وتكون مرتاحا مع نفسك.. ولكي تنجح مع من يهمك لابد أن تضيف رصيداً للعلاقة فالعلاقات هي رباط متين يزداد قوته بالعطاء والمحبة وابداء الاهتمام.. وخير العطاء ما كان مما يحبه الآخر ويفضله لا ما تفضله أنت لهم.. فما فائدة اللحم للأرنب رغم غلاء ثمنه عن الجزر.. فإنسان يحب المدح وإنسان يحب الشكر.. إنسان يحب الكلام المنطقي وآخر عاطفي.. وسر النجاح في العلاقات هو معرفة مفتاح شخصياتهم.. فشخص يحب أن تشعره بالفخر والمكانة.. وشخص يحب أن تستشيره.. شخص يحب أن تهيئه قبل أن تخبره.. شخص مغامر وآخر مرح ضحوك.. شخص جاد وآخر سطحي.. فتعلم مفاتيح اهتماماتهم وهمهم وليس عليك أن تذوب في ذواتهم ولكن أن تتعايش معهم وتكسبهم لصفك.. فكسب الأصدقاء خير من زيادة العداوات.. وليس عليك أن تهلك نفسك لأجل الآخرين بل وجودهم هو امتداد لذاتك وسعادة لك.. فإن شعرت بالإرهاق منهم فلا بأس من أن تنفرد لوحدك وتعود لأعماقك.. ولابد أحيانا أن تقول لا لما لا تريد ولطلبات الآخرين فذوبانك في الآخرين يمحي ملامح نفسك ويخفيها.. وإن قبلت أول مرة فسيكون الرفض صعب بعد ذلك وإن رفضت لما لا تريد فأنت كسبت ذاتك وكسبت احترام الآخرين لك، وللأسف هناك أناس يكتشفوا هذه الحقيقة بعد سنوات طويلة، وهذا ما حصل مع المرأة المخطوفة كبتت ضيقها ولكن حقيقة نفسها ظهرت في عالم الحقيقة، فعليك اخبار الآخرين لكي لا تأتي سنوات عديدة وتتكلم بها بعد أن يفوت الأوان..

شكرا يا صاحب الفكر النير والقلب الطيب فهل تحدثني عن نفسي بكل صراحة، تبسم قائلا: أنت إنسان طيب ورائع ومحب للخير، لديك قدرات ومهارات وعندك القابلية للتعلم والتقدم أكثر، بذرت في ذاتك أمورا كثيرا منذ الصغر وأنت تجني اليوم بعضا من ثمار تلك البذرات، ولا زال أمامك الكثير لتفعله فالحياة أجمل وأرقى ودائما هناك المزيد.. لن أطيل في مدحك وإن كانت الإيجابيات جزء من الحقيقة لابد من معرفتها لنركز عليها.. ولكن لابد أن لا نتغافل عن نقاط ضعفنا لنقويها، فمن نقاط ضعفك الانفعال، فأجدك كثيرا ما تنفعل وزيادة على ذلك تتصرف فورا، وأنصحك أن تدرب نفسك على تأخير ردة فعلك، فلا تتصرف وأنت منفعل.. وإني مؤمن بأنك قادر على أن تضبط نفسك من الانفعال.. نقطة ضعفك الثانية هي ضيقك من أمور بسيطة وبعضا من الحساسية خاصة ممن تحب.. فلا تضع توقعات عالية على الآخرين سواء بتصرفهم أو كلماتهم، فلو وجدت خيرا في كلام من حولك احمد الله، وإن كنت تريد شيئا

أخبر الآخرين دون أن تتضايق أو تغضب، قل ما تريد بوضوح وهدوء، وعندي لك نصيحة أخرى هي أن تتدرب ذهنيا قبل أن تواجه الشخص وحتى لو اضطررت أن تكتب ما ستقوله وتحفظه، وعندما تجلس مع الشخص تكون أفكارك مرتبة وما تريده واضحا، أما إن كنت في لحظة انفعال لن تعرف ما الذي ستقوله، ولا تنسى أن تقابل طلبات الآخرين بإجابة غير فورية فقل لهم سأفكر في طلبكم أو عطني فرصة لأقرر وبعد أن تفكر مع نفسك أخبرهم عن قرارك.. لا تخف من قول ما تريد أو قول ما لا تريد فعله إن كان بأسلوب هادئ، فكثير من الناس بطبيعتهم يخافون من الخلاف والرفض، ونصيحتي لك أن تكسب ذاتك وأن تقول الحقيقة وتتحمل نتائجها، وفي الحقيقة قول الحقيقة لن يحدث لك الألم بل العكس هو ما سيحدث لك الألم الداخلي بعد مدة من الزمن..

لا أدري ما حصل بعدها.. فمع كلماته غفوت ولا أدري كم من الوقت نمت، ولكني صحوت على صوت السائق يوقظني لايصالي لدنياي من جديد، وقال لي أن تصرفي حين مسكت صورة ابنتي ولم اتأثر بما حولي هو من جعل مدة وجودي في هذا العالم أقصر من غيري، فقلت له: كيف لي أن أعود مرة أخرى لعالمكم فلم يعد مخيفا بالنسبة لي وإني راغب بمقابلة ذلك الرجل الطيب ليرشدني من كلماته الطيبة، فمسك بيدي بشدة وأدخلني السيارة وقال لي بنظرة حادة: رجاءاً لا تتكلم إلى أن تصل لمنزلك وإلا سترى ما لا يحمد عقباه، فلابد أن تكون شاكرا لنيل حريتك، قاد سيارته بسرعة إلى أن وصلت للمنزل وأنا خائف من الحديث معه، وعندما نزلت من السيارة نزل هو وأنزل حقيبتي وحملها بيديه وأعطاني إياها وقالي لي مبتسما: لن تحتاج أن تأتي لعالمنا فالحقيقة وكل الإجابات ستجدها في أعماق ذاتك..

تمت بحمدالله